الغياب في رواية "شُرفات بحر الشمال" لواسيني الأعرج

مَكنَاس فَطيمَة
أستاذ مساعد، جَامعة د. الطاهر مولاي، سعيدة؛ الجزائر

د. الزين عبد الحق
باحث في مخبر الأنساق، البنيات والمُمارسات، جامعة وهران2، الجزائر

المُلخص

نحاول من خلال هذه الورقة العلمية البحث في (الغياب في رواية «شُرفات بحر الشمال») مُقاربة مفهوم يُسلط الضوء على نسق النص لسيتنطق بنياته فيقرأ مدلولاتها، ويُبصر فراغاته وبَيَاضَاته وحتى فواصله ليُؤوِل ملفوظاتها ويكشف عن المسكوت عنه في ثنايا النص، لنعرف أين يكمن الغياب؛ هل في التلصص ومعرفة أخبار الأبطال الحقيقيين؟ أم في متعة قراءة النص كمرآة تعكس صورا لحياة وصراعات البشر مع الواقع؟

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية، النص، القراءة، المناص، التّناص، التأويل، الانزياح، الغياب.

لقد عرف الأدب الكثير من الأجناس الأدبية، والعديد من المؤلفين. وظهرت خلاله المذاهب والمدارس المختلفة التي أسست المناهج وأرست المفاهيم لدراسة النصوص ووضعها قيد الفحص والبحث، هذا الأخير الذي انقسم إلى قسمين أحدهما سياقي والآخر نسقي.

ولقد مرّت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية هي الأخرى بمراحل؛ حيث

اتّسمت في مهدها بالخلخلة ثم توالت بعد ذلك الروايات وأسهم الكُتّاب جيلا بعد جيل في إثراء هذا الجنس الأدبي، وصارت الكتابة الأدبية المعاصرة لا تهتم بأن يكون الخطاب الذي تُؤسسه منسجما أو متوازنا بقدر ما يكون مُشكَّلا من نسيج من العلاقات التناصية، فهل كان هذا الإثراء توسيعا فقط لما سبق أم بناء لما سيأتي؟ وهل كانت الإضافات استطرادات مُملة أم رؤى ذات تطلّع وأفق؟

الرواية الجزائرية

لقد شهد الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية (خاصة الرواية) حواجز أعاقت ولادته وعطّلت تطوره، وعلى رأسها الاستعمار الفرنسي الذي عمل على تحطيم كيان اللغة العربية، غير أن ثورة نوفمبر أبت استمرار الوضع «فالزخم الثوري إذا لم يُعط ثماره بشكل سريع، فقد ظل يعمل في الخفاء مُتجاوزا بذلك قساوة الظرف التاريخي، ليجد من يستلهمه بعد الثورة الوطنية وبشكل أعمق، بعد الاستقلال الوطني، وبالضبط بعد فترة السبعينات...». [1] كان للثورة أثر كبير في إلهام صانعيها من أجل بلوغ هدفها، وبعد الاستقلال صارت منبعا يستمد من أحداثه وبطولاته كل ذي حاجة فمنهم المؤرخ، المحلل السياسي، وكذا الأديب الجزائري.

يتفق الكثير من النقاد على أن بداية الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية تعود إلى نص «غادة أم القرى» لأحمد رضا حوحو في الأربعينيات، الذي مهّد الطريق للكتابة الروائية التي كانت نصوصها تبحث عن التغيير الاجتماعي أو الإصلاح أو عنهما معا. « وكان مصطلح الرواية يشيع بين الأدباء الجزائريين أيضا إلى عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف حيث كانوا يُطلقون على كل مسرحية مصطلح رواية؛ من حيث كان أطلق «أحمد رضا حوحو» على أول رواية جزائرية له وهي (غادة أم القرى) مصطلح قصة واستراح. [2] مما يشير إلى وجود خلط وذلك ما ينِمُّ عن تأخر ظهور النص الروائي الجزائري.

واصلت الرواية ظهورها عبر فترات متقطعة؛ ففي الخمسينيات ظهرت رواية «الحريق» لنور الدين

بوجدرة، وفي الستينيات رواية «صوت الغرام» لمحمد المنيع. أما الانطلاقة الحقيقية للنصوص الروائية كانت على يد كل من عبد الحميد بن هدوقة بروايته ريح الجنوب و الطاهر وطار بروايته اللاّز مع بداية

السبعينيات. أين كانت الرؤية الإبداعية للأديب الجزائري عامة تُسلط الضوء على الظروف التاريخية إبان فترة الاحتلال، وعلى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت خروجه من أرض الوطن. «...إذ أن بنية الأفكار وصيرورة الواقع تولّت عنها رؤيتان إبداعيتان عند الجيل المؤسس للرواية، الرؤية الأولى حاولت مسايرة الواقع وتحولاته السياسية والاجتماعية...أما الرؤية الثانية حاولت فهم مُجريات الواقع واقع ما بعد الاستقلال...». [٣]

بقيت الرواية في فترة الثمانينيات تتبع القالب الذي صنعه لها روادها مرتبطة في مواضيعها بالوضعية الاجتماعية لتلك الفترة، عاكسة هموم الجماعة في ظل أحادية الحزب الحاكم. أما في مرحلة التسعينيات وما بعدها؛ فقد دخلت الرواية الجزائرية -مع أحداث أكتوبر ١٩٨٨- عهدا جديدا عرف ما يسمى بالتعددية الحزبية، كما شهد انفتاحا على الرأسمالية، وأيضا عنفا سياسيا وانتشارا للإرهاب وهو ما يُعبّر عنه بعشرية الدم. «ظهر مفهوم جديد هو مفهوم الرواية الاستعجالية التي تعطي الأولوية للتسجيل وللشهادة بشأن ما يحدث، وربما على حساب المُتطلبات الفنية...»، [٤] ولا يعني هذا أن الرواية صارت رصدا للأحداث لأن عالم الرواية يحقق مساحة أرحب للشجاعة ولانطلاق الفكر.

جاء نص التسعينيات أيضا ليتمثل الحب «وقد ظهرت العاطفة الرومنسية عند الروائي مفتي في روايته (المراسيم والجنائز) وكذلك واسيني لعرج في (شُرفات بحر الشمال) وعند جيلالي خلاّص في (الأزمنة المتوحشة)... ويمكن اعتبار أحلام مستغانمي في (ذاكرة الجسد) رائدة الرواية العاطفية». [٥] إن أهم ما يميز النص التسعيني أيضا التعدد اللغوي داخل نص واحد؛ إذ نجد الفصحى، العامية والفرنسية، مثال ذلك رواية (متاهات ليل الفتنة) لحميدة عياشي. زد على ذلك تميزه بتأرجح السرد بين النثر والشعر وهو ما نجده جليا في (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي.

برزت الرواية النسوية في فترة التسعينيات مستمرة حتى بعد هذه الفترة؛ إذ تميز النص السردي التسعيني «...بظهور عدة أسماء نسوية مثل فضيلة الفاروق (مزاج مراهقة) و زهرة ديك (بين فكي وطن)...و(مُذكّرات مُدرِسَة) لزهور ونيسي...» [٦]

ومع ذلك يبقى الادب المكتوب باللغة الفرنسية نصيبا في الأدب الجزائري وإن كان تصنيفه صعب بسبب لغته الأجنبية وهويته العربية وقد مثل هذا التيار كل من مولود

فرعون، رشيد ميموني ، أسيا جبار وكاتب ياسين حيث عرفت أعمالهم شهرة واسعة منقطعة النظير وترجمت أعمالهم إلى عدة لغات ،

موضوع ورقتنا يتعلق بواحدة من أهم ابداعات الكاتب واسيني الاعرج تتلخص راوية شُرفات بحر الشمال هو عنوان رواية شاب مثقف يدعى ياسين كان يعيش في الجزائر وطنه الأم الذي جعله القتلة يتنكّر لأمومته؛ إذ كان الموت فيها يتربص بالأفراد من كل صوب وحدب، الأمر الذي اضطر ياسين إلى المغادرة نحو الخارج، تحديدا إلى أمستردام إثر تلقيه دعوة حضور مؤتمر بها، ثم منحة لوس أنجلس من قِبَل معهد الأبحاث في تاريخ الفن والإنسانيات، وهكذا طرق باب مدن المنفى لعله يجد بعضا من الحياة عندها.

بحث ياسين عن الاستقرار والطمأنينة خارج وطنه، لكن رغم ذلك، تبقى المعاناة والجراح هي ذاتها تنخر ذاكرته وتُحاذي يومياته، فلا مهرب له منها إلا إليها، فقد وجد ذاكرته بالمرصاد له وعملت على اجترار الماضي، وتأكيدا لأهمية الذاكرة فقد جاء في غلاف الرواية: « نحن لا ننسى كما نريد ولكن كما تشتهي الذاكرة. عندما نبدأ شطط التفتيش عن أسماء الغائبين على شواهد القبور القديمة، هذا يعني أن زمن المنفى قد بدأ وأن الخيبة صارت فينا. «...لأمستردام طقوسها، ولي مدينة تلتصق في الحلق كالغُصة، كلما حاولت تفاديها، زادت توغلا فيَّ كالنّصل القاطع»[٧]، فهي لا تبرحه لأنه جزء لا يتجزأ منها. «تساءلت وأنا أتكئ على خشب النافذة، أنا أبحث عن ماذا إذن؟ ربما عن ما يُبعدني عن تلك الأرض. عن النسيان الذي لا يوقظ فيّ هذه المدينة إلا ما يهز الذاكرة بعنف كبير»[٨]، وبهذا يكون النسيان مرهونا بالتذكر. أ أ

يأتي عنوان هذا النص على شاكلة -العناوين الأخرى التي جادت بها قريحة الأعرج- جملة اسمية لا وجود لفعل فيها؛ إذ « يتكون العنوان من حيث بنيته التركيبية من مسند اسمي مُركب يتصدره اسم بصيغة الجمع أضيف إليه ما يحدد هويته لتعيين مرجعية المعرفة المقصودة (بحر الشمال) من خلال مضاف ومضاف إليه...»[٩]، هذه الجملة تضم في جوانبها أفقها السردي.

تحمل صيغة شرفات في طياتها نظرة علوية فوقية إذ يمكن للناظر أو القارئ أن يتطلع من خلالها إلى كثير من الدلالات لنقف على **غياب** من خلال **حضور** يمنحنا إياه نصنا الروائي «...فعتبة العنوان توحي بجماليات بنية الشكل السردي من خلال عبارة **شرفات** باعتبار أن كل يشكل **شرفة** نطلع منها على ملمح / أو على ملامح من محنة الذات

الساردة ووطن المحنة، كما تحدد صيغة **بحر الشمال**، الفضاء المكاني الذي يتم فيه بعث مدافن الذاكرة...»[١٠].

جعل المؤلف من العنوان محطة تتنازعها رؤيتان هما: الاستقرار/ الاغتراب، وصراع يتجاذبه طرفان هما: القيمة/ اللاقيمة أو المكانة/ اللامكانة.

رُويت الأحداث عبر خطية سردية تراوحت بين زمن الحاضر وزمن الماضي «تطرح شرفات بحر الشمال للروائي الجزائري واسيني الأعرج صعوبة كبيرة في تحديد زمن حوادثها المفترضة ، باعتبار التداخل الرهيب بين الزمن الحاضر الذي تنطلق منه القصة المتخيلة الذي لا يلبث أن يعود إلى زمن ماض بعيد هلامي يستحيل ضبطه بدقة»[١١]، قصد تكوين رؤيا أو رؤى تجعل النص الروائي يتفق مع أفق القارئ أو يُخيّبه.

قائمة المصادر والمراجع:

١. واسيني الأعرج، الطاهر وطار: تجربة الكتابة الواقعية –الرواية نموذجا- دراسة نقدية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٩، ص.٢٤

٢. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السّرد، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص.٣٠

٣. كراري مبروك، وظيفة التناص في الرواية الجزائرية ١٩٧٢-١٩٨٢ (متابعة لأعمال الجيل المؤسس للرواية في السبعينات: ابن هدوقة، وطار، مرتاض)، الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، ١٩٩٨/١٩٩٩، ص.، ص.٨،٩

٤. إبراهيم سعدي، تسعينات الجزائر كنص سردي، مجموع محاضرات الملتقى الدولي السادس، ط.٠٦، الجزائر، مديرية الثقافة لولاية برج بوعريريج، ٢٠٠٣، ص.٢٤

٥. إبراهيم سعدي، نفس المرجع، ص.٢٤

٦. إبراهيم سعدي، نفس المرجع، ص.٢٨

٧. واسيني الأعرج، شُرفات بحر الشمال، الجزائر، دار الفضاء الحر، ٢٠٠١، ص.٢٢٤

٨. واسيني الأعرج، نفس المرجع، ص.٢١٠

٩. عمارة كحلي، جمالية العنوان في ضوء أفق انتظار القارئ رواية شرفات بحر الشمال نموذجا: لعرج واسيني وشغف الكتابة، دفاتر المركز، رقم ١١، الجزائر، منشورات المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC)، ٢٠٠٥، ص.٦٢

١٠. وشوشة بن جمعة، جدلية الوطن/ المنفى وذاكرة الرهانات الخاسرة في رواية شرفات بحر الشمال، مجلة عمان، ع.١٠٢، الأردن، ٢٠٠٥، ص. ٣١

١١. زوزو نصيرة، بنية الزمن في رواية شرفات بحر الشمال لواسيني الأعرج، مجلة المخبر، ع.٠٢، الجزائر، ٢٠٠٥، ص. ٨٧

١٢. * رُوكيام: مرثية.